ISSN 2661-7633 / EISSN 2716-8883 مجلة طبنـــة للدراسات العلمية الأكاديمية

السنة: 2023 المجلد: 06 العدد: 01 ص.ص: 1358-1374

الرواية الجزائرية وتفكيك الذاكرة التاريخية –رواية كولونيل الزبربر للحبيب السايح أنموذجا–

The Algerian novel and The Diconstruction of Historical Memory : The Novel,Colonel El Zbarbar By Al-habib Al-sayeh is an Example

عدلان رويدي، جامعة محمد الصديق بن يحي جيجل، الجزائر، rouidiadlene@yahoo.fr

تاريخ إرسال المقال: 2023-01-04 تاريخ قبول المقال: 2023-02-28

الملخص:

الحبيب السايح من الروائيين الجزائريين المشهورين في الجزائر والعالم العربي، وقد ألّف العديد من الروايات والكتب، وترجمت رواياته إلى لغات كثيرة.

يحاول هذا المقال إلقاء الضوء على الخطاب التاريخي في رواية كولونيل الزبربر للكاتب الجزائري الحبيب السايح، وهذا من خلال الوقوف على تعريف الرواية التاريخية، ثم نشأة هذه الرواية، إضافة إلى شعرية العنوان، ثم الثورة الجزائرية والتمثيل السردي، والسرد التاريخي لخطاب الثورة.

الكلمات المفتاحية: الرواية–الحبيب السايح–التاريخ–الثورة.

Abstract: Al-habib Al-sayeh is one of the most famous novelists in algeria and word Arabic , and he has written many novels and books ,and his novels have been translated into many languages .

This Article attempts to shed light Historical Discours in the Novel,Colonel El Zbarbar by The Algerian writer lahabib asayeh This is by Standing on the Definition of Historical Novel and then the Emergence of This Novel in Addition to the Title Poetic then the Algerian revolution and Narrative Representation and Historical Narrative of the revolution’s Discours.

Key words : novel- Al-habib Al-sayeh – *History – revolution*

مقدمة:

تعدّ كتابة التاريخ من أصعب التحديات التي تواجه الروائي في تشكيل فضائه السردي، وهي مغامرة محفوفة بالعديد من المزالق والمطبّات بحكم عدّة معطيات، يتعلق بعضها بطبيعة الحادثة التاريخية نفسها وما تحمله من خصوصيات، ويتعلق بعضها الآخر بالمتخيل الذي يصنع هذه الحادثة، ويبث فيها من روحه الإبداعية، ليجعل منها خطابا روائيا، يحمل خصوصية هذا الفن ويمنحها ديناميكية داخل الفضاء الروائي، ليتشكل في الأخير ما نسميه الرواية التاريخية، التي لا يختلف فضائها الروائي عن فضاء الرواية نفسها إلاّ من خلال بعض الجزئيات الشكلية، فكلاهما يستثمر التاريخ، ويبحث في منظور الشخصيات التاريخية، والإنسان بدوره كائن تاريخي بامتياز، فهو يواكب مختلف التحولات والهزات التي شهدتها المجتمعات والبلدان في فترات تاريخية متعاقبة عبر مختلف الأبنية والمستويات، السياسية منها والاقتصادية والثقافية والفكرية، ليحاول فهم مختلف العلل التي تحكم هذه الصيرورة وهذا المسار الزمني.

والرواية التاريخية الجزائرية المعاصرة على غرار الرواية التاريخية العربية، استفادت من التجارب الروائية التاريخية العالمية، حيث استثمرت التاريخ وفق رؤية فنية وتاريخية، تظهر وعي المبدع الجزائري في تعاطيه للمادة التاريخية ونضجه الفني، لتكتسب بذلك شكلا فنيا جديدا، وهذا بفضل جيل من الروائيين الذين راحوا يبحثون عن وسائل فنية، وأساليب جديدة في الكتابة التاريخية، تتحرر من أسر الرواية التاريخية التقليدية، بحثا عن رواية تقرأ التاريخ وتمحّصه بعمق، وتحرّك المناطق الراكدة فيه، وتضعه موضع مسائلة ونقد، لتبحث عن أزمة الإنسان الجزائري المعاصر.

ومن ضمن الروائيين الذين ساروا على هذا المنوال نجد الحبيب السايح، الذي يمثل تجربة روائية جزائرية فريدة ضمن الساحة الأدبية الجزائرية، تجربة تحفر في ما هو مهمش ومغيّب ضمن المشهد الأدبي الجزائري، خصوصا التاريخ الجزائري الحديث والمعاصر، وهذا ما نجده في روايته "كولونيل الزبربر"، التي استرجع فيها حقبة مهمة من تاريخ الجزائر، تتمثل في فترة الثورة التحريرية ثم مرحلة الاستقلال وصولا إلى العشرية السوداء، محاولا إماطة اللثام على بعض الأشياء التي غيّبها التاريخ، خصوصا ما يتعلق بالخلافات بين قادة الثورة، كل هذا من خلال ربطها بالحاضر وإسقاطها على الواقع الراهن.

يهدف هذا المقال إلى تفكيك كل هذه الأحداث التاريخية المهمة ضمن الخطاب الروائي، وهذا من وجهة نظر المبدع، وطريقة طرحه لها فنيا وتخييليا، من هنا يمكن طرح التساؤلات التالية: كيف استثمر الحبيب

السايح المادة التاريخية في خطابه الروائي؟ وكيف مزج المتخيل بالتاريخ؟ وأين تكمل جمالية الخطاب التاريخي في الرواية؟

ومن أجل الإجابة على هذه التساؤلات تمّ اعتماد المنهجية التالية:

-الرواية العربية والتاريخ.

-الرواية والتاريخ وأفق التحاور بينهما.

-الرواية التاريخية العربية النشأة والنضج.

-الخطاب التاريخي في رواية "كولونيل الزبربر" للحبيب السايح.

-الطاوس/ الذاكرة التاريخية والوجه المتخفي من الثورة التحريرية.

-مرحلة ما بعد الاستقلال /استمرار عملية التصفية.

-العشرية السوداء/ جبل الزبربر الشاهد على فضاعة المشهد.

هذا المقال يروم إلى الإجابة على هذه التساؤلات، وبيان معالم الخطاب التاريخي في الرواية، وقد اتبعنا المقاربة الثقافية، من خلال البحث عمّا هو مضمر ومقصي ضمن التاريخ الرسمي، وهذا هو الدور الأعظم الذي تلعبه الرواية التاريخية.

المبحث الأول: الرواية العربية والتاريخ

المطلب الأول: الرواية والتاريخ وأفق التحاور بينهما

بداية يمكن طرح إشكالية مهمة تتمثل فيما يلي: إلى أي مدى يمكن للرواية أن تتعانق مع التاريخ وتتصالح معه؟، وهل يمتلك الخطاب الروائي القدرة على مساءلة الحدث التاريخي ؟، وعبر أي لغة يستطيع المبدع أن يجسد هذا التصالح داخل الخطاب الروائي؟ خصوصا لمّا يتعلق الأمر بالحدث الثوري، الذي غيّر مجرى التاريخ في بلد من البلدان، وأصبح من المسلمات الثابتة التي يصعب زعزعتها، والمقدسات التي يصعب المساس بمصداقيتها، والتشكيك في بعض الأشخاص الفاعلين في هذا الحدث، والذين صنعوا مجد هذا البلد.

هذه الإشكالية المعقدة والمتشعّبة، تمثل محطة انطلاق إلى فهم العلاقة بين التاريخ والرواية وما تربطهما من وشائج مشتركة، فالتاريخ في الرواية هو عنصر قائم في حدّ ذاته، تميّزه الديمومة والحركة داخل الجنس الروائي، باعتباره خزان للأحداث التاريخية، وليس هذا فحسب، بل يتم إسقاطه على الوضع الراهن، لأنّ التاريخ في الرواية هو مساءلة للحاضر، ومحاكمته عبر تخييل سردي قبل العودة إلى الماضي، وهذا ما وسّع من حجم الفجوة بين الرواية والتاريخ، وصعّب من فرص التصالح بينهما «فكأن

مجلة طبنـــة للدراسات العلمية الأكاديمية ISSN 2661-7633 / EISSN 2716-8883
السنة: 2023 المجلد: 06 العدد: 01 ص.ص: 1358-1374

الخطاب الروائي عن التاريخ لا يستدعي الأخير إلاّ ليخبر عن صعوبة الحوار مع التاريخ»[1]، وبما أن الخطاب الروائي شغوف بمعانقة الأماكن المهمشة في التاريخ الرسمي، سواء بطريقة عفوية أو إرادية، فهو يبحث دوما عن فضّ بكارة المسكوت عنه في الخطاب التاريخي الرسمي، بحثا عن خطاب روائي تخييلي، يفكّك الحادثة التاريخية ويغوص في تفاصيلها الدقيقة، وينبش في مواطن الغموض والإبهام فيها، وهذا يستدعي من الكاتب وعيا تاريخيا في مقاربة الحادثة التاريخية، هذا الوعي الذي ظهر كمفهوم حقيقي« مع هانز جورج كادامر الذي وصف التاريخ كتخصص يسمح بفهم موضوع الماضي بإعادة وضعه في الزمن من أجل التمكن من فهم الحاضر»[1]، الذي يفترض وعيا تاما من قبل الانسان ككائن تاريخي قبل كل شيء، و«هكذا تحوّل الوعي التاريخي إلى أن صار وعيا بانتمائنا إلى التاريخ والذي يتجاوز المعرفة التي لدينا عنه، ويثبت الانسان الوعي التاريخي حين يسعى جاهدا لفهم انتمائه الخالص للزمن أو أيضا إلى التاريخ»[2]، وقد انطلقت هذه الفكرة بداية من القرن 19م أين تطورت الأبحاث التاريخية، بحكم ظهور تحولات ومتغيرات جديدة شهدها المجتمع الأوروبي على مختلف الأصعدة، السياسية منها والاقتصادية والاجتماعية والثقافية. وهذا ما شكّل وعيا جديدا تشرّب بمعطيات الحضارة الجديدة مع عصر الأنوار، وهذا الوعي الجديد ساهم في إذابة الجليد، وتقريب المسافة بين الرواية والتاريخ، ومن ثمّ التحاور الإيجابي بينهما.

لذلك لم تعد الرواية سردا لأحداث تاريخية وقعت في الماضي، بل كما قال جورج لوكاتش «إنما تثير الحاضر ويعيشها المعاصرون بوصفها تاريخهم بالذات، يعيش البشر وقائع زمن مضى كوقائع حاضرة يعيشونها بالذات بسبب كتابة روائية تحاور زمنا وهي تكتب زمنا مختلف عنه»[3]، والروائي وعبر وعيه الفني الذي يضاف إليه هذا الوعي التاريخي، لا يترك الحادثة التاريخية تسبح في زمن واحد، بل ويفسح المجال لتعدد الأزمنة التي هي الأخرى تتحاور مع بعضها البعض، لتحاول تفسير مآزق الانسان المعاصر، في خضّم المعطيات التاريخية المعاصرة وما تعرفه من تناقضات وصراعات.

فالروائيون الذين يستثمرون أحداث التاريخ في نصوصهم الروائية، عليهم أخذ الحيطة والحذر في التعامل مع هذه الأحداث، لأنّ الرواية التاريخية هي «خطاب أدبي ينشغل على خطاب تاريخي مثبت سابق عليه انشغالا أفقيا، يحاول إعادة إنتاجه روائيا، ضمن معطيات آنية، لا تتعارض مع المعطيات الأساسية

(1)فيصل دراج: الرواية وتأويل التاريخ نظرية الرواية والرواية العربية، المركز الثقافي العربي، بيروت-الدار البيضاء، ط1، 2004، ص 268.

(1)جماعة من المؤلفين: أبحاث في الرواية العربية، منشورات مختبر السرديات، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ابن مسيك، الدار البيضاء، 2015، ص 200.

(2)المرجع نفسه والصفحة نفسها.

(3)فيصل دراج: الرواية وتأويل التاريخ نظرية الرواية والرواية العربية، ص 263.

للخطاب التاريخي»[1]، كما أن النص الروائي التاريخي يطرح مفارقة مهمة، وهي كيف يلتزم الروائي بالحقيقة التاريخية، وهو بصدد سرد يتطلب منه انتقاء جملة من الاستراتيجيات الخطابية، التي تنتج في النهاية أثرا تخييليا لدى القارئ، لأنّ نقل الحوادث التاريخية يمرّ عبر أدوات سردية، وقنوات خطابية تسهّل على القارئ مهمة تصور تلك المشاهد وإعادة تشكيلها، من أجل تحقيق أكبر قدر من المطابقة بين الحقيقة التي ينتجها هو وبين المرجع الذي ينطلق منه، وهذا يتطلب وعيا فنيا بطبيعة الخطاب الروائي التاريخي وتفاصيله الدقيقة، الذي يبعد الكاتب عن تلك اللغة التقريرية والسرد الخطي للأحداث، ليكسر هذه النمطية الزمنية، وهذا من خلال لعبة التجوال بين الماضي والحاضر والمستقبل، من أجل تفكيك هذه الأزمنة ومساءلة الراهن واستشراف المستقبل، وهذا هو الدور الحقيقي الذي تلعبه الرواية التاريخية ضمن الوضع التاريخي الراهن.

المطلب الثاني: الرواية التاريخية العربية بين النشأة والنضج

مع تطور الوعي التاريخي والاجتماعي في البيئة العربية في العصر الحديث، تطور الإبداع الأدبي والفني، وتطورت معه الأعمال الروائية العربية التي اشتغلت على التاريخ، فجعلت منه محور اهتمامها الروائي، وعرفت نضجا فنيا خصوصا خلال فترة نهاية القرن العشرين وبداية القرن الحادي والعشرين، لتتجاوز الطابع التقليدي الذي ألفناه مع الرواية التاريخية التقليدية في مراحلها الاولى، من خلال أعمال جورجي زيدان وسليم البستاني ومحمد فريد أبو حديد وعلي أحمد باكثير، وأعلام الجيل الأول من كتاب هذا النوع من الرواية في البيئة العربية.

ومن هنا اتخذت الرواية التاريخية العربية لنفسها طريقا من أجل فهم الواقع، وتفكيك الراهن السياسي والتاريخي المهزوم الذي عرفته البلاد العربية، خصوصا بعد حرب 1967، التي غيّرت مجرى الوعي لدى الانسان العربي، لتصنع نصوصا روائية فريدة وإشكالية، فرضت نفسها ضمن الساحة الروائية العربية، وربّما كان من أهمها رواية " الزيني بركات" لجمال الغيطاني ورواية "ما تبقى لكم" لغسان كنفاني.

ومن البيئة العربية ننتقل إلى البيئة الجزائرية، التي لا تنفصل هي الأخرى عن معطيات التاريخ العربي والإسلامي، بحكم الخصوصيات المشتركة بينهم جميعا، فالروائي الجزائري خصوصا في المرحلة الأولى من ظهور الرواية الجزائرية، استثمر التاريخ كمادة أساسية في متونه الروائية وأهم حدث تاريخي اشتغل عليه هو ثورة التحرير الكبرى التي «غيّرت النظر والأعماق في الإنسان فأصبح حرّا بعد أن كان عبدا

[4]نضال الشمالي: الرواية والتاريخ بحث في مستويات الخطاب في الرواية التاريخية العربية، عالم الكتاب الحديث، الأردن، ط1، 2006، 117.

مجلة طبنـــة للدراسات العلمية الأكاديمية ISSN 2661-7633 / EISSN 2716-8883
السنة: 2023 المجلد: 06 العدد: 01 ص.ص: 1358-1374

دليلا»[1]، فكانت البداية مع ابن هدوقة والطاهر وطار ثم امتد هذا التيار إلى باقي المبدعين الجزائريين كواسيني الأعرج و جيلالي خلاص ومحمد مفلاح وعز الدين جلاوجي والحبيب السايح، هذا الأخير نلمس في نصوصه اشتغال كبير على الذاكرة التاريخية، التي يعود إليها الكاتب لصنع متخيله الروائي، خصوصا فترة الاستعمار الفرنسي وفترة العشرية السوداء، ويبدو هذا جليا في نصوص روائية عديدة، ومن بينها رواية كولونيل الزبربر التي نشرت في تونس من طرف دار الساقي اللبنانية عام 2015، حيث تطرح هذه الرواية قضايا إنسانية وتاريخية وحضارية.

المبحث الثاني: الخطاب التاريخي في رواية "كولونيل الزبربر" للحبيب السايح

المطلب الأول: الطاوس/ الذاكرة التاريخية والوجه المتخفي من الثورة التحريرية

التاريخ يمثل المادة الأساسية التي تقوم عليه الأعمال الروائية الجزائرية، التي هي عبارة عن مغامرات سردية لها أسئلتها الخاصة في تعاطي الحدث التاريخي واسترجاع وقائعه، ووضعه موضع محاكمة تحت مقصلة الكاتب ووعيه الفني والتاريخي، ومحاولة سدّ الفجوات والبياضات الموجودة في هذا الحدث، على هذا الأساس أحسب أنّ الحبيب السايح في نصه الروائي يسير على منوال أفلاطون الذي يرى أنّ الشعر أعظم فلسفة من التاريخ، فهو يؤكد أنّ السرد أعظم من التاريخ بكثير، رواية كولونيل الزبربر تمثل مغامرة حكائية متميزة، لها أسئلتها الخاصة بها في التعامل مع التاريخ الجزائري واسترجاع أحداثه ووقائعه لتحاول القبض على بعض اللحظات الهاربة من سجل التاريخ الرسمي، وتضع يدها في المناطق الأكثر حساسية وإثارة في جسد هذا الخطاب المتشاكل والمعقد، هذه الرواية، تتشكل من355 صفحة ومقسمة إلى ثمانية فصول، كل فصل يحيل إلى مرحلة من المراحل التاريخية التي مرت بها شخصيات الرواية تسرد هذه الرواية واقعا تاريخيا مفكّكا ومشوها وملفقا، ينتابه الغموض والضبابية وعدم الوضوح، حيث تتجاوز ما هو مكتوب في الذاكرة التاريخية الرسمية، خصوصا لمّا يتعلق الأمر بمسائل الخلافات التاريخية بين القادة العسكريين خلال ثورة التحرير الكبرى.

تساؤل الرواية فترة مهمة من تاريخ الجزائر الحديث، حيث تحاول النبش في هذه المرحلة التاريخية، وهذه الصفحة المغيّبة من تاريخ الجزائر والحلقة المفقودة في هذا الخطاب الإشكالي، لكن الرواية وحدها تصنع الاستثناء لتحاول رسم هذه الصفحة من جديد عبر المتخيل، الذي يعيد ترميم الذاكرة التاريخية، وإصلاح ما خرّب منها، وتقديم الأحداث التاريخية في ثوب فني جديد.

[1] عبد الله الركيبي: الأوراس في الشعر العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر،(د.ط)، 1982، ص 30.

يعود بنا الحبيب السايح إلى مرحلة الثورة المسلحة، ثم السنوات الأولى من الاستقلال، وصولا العشرية السوداء بكل حمولتها الثقافية والحضارية والسياسية والدينية.

والفن الروائي باعتباره أكثر قدرة وأوسع تعبيرا عن الواقع، بمخزونه الثقافي المتعدد، يطرح الكثير من الأسئلة المعقدة، حيث يصل بها إلى أوجّ توتّراتها عبر وسائط سردية، باعتماد عنصر التخييل الذي يعاد به تشييد المرجعيات التاريخية والاجتماعية والثقافية، وهندسة الفرضيات المتاحة والاحتمالات الواردة، لفهم الأسباب والدوافع، التي كانت وراء غياب هذا العنصر أو تغييبه من مشهد التاريخ الرسمي والمؤسساتي وعبر تقنية الوصف التي يستطيع الكاتب من خلالها، الخوص في العوالم الداخلية للشخصيات وطرائق تفكيرها، وعن طريق لغة الحوار الخارجي، التي من خلالها، يطرح الكاتب فرضياته المحتملة ليميط اللثام عن الخفي والمضمر ضمن الخطاب التاريخي، وهذا ينطبق تماما على رواية كولونيل الزبربر التي تبحث وتتقفى أثر هذا التاريخ من بوابة شخصية محورية أنهكتها ذاكرتها وأثقلت كاهلها الكثير من الأسئلة المبهمة حول هذا التاريخ وما مدى صدق أحداثه، فخلف داخلها موجة من القلق والثورة من أجل النبش مرة أخرى في هذا التاريخ الذي اكتسب قداسة كبيرة عبر السنين، وبالتالي من الصعب زحزحة هذه القداسة في ظل التغييب المقصود للتاريخ الحقيقي هذه الشخصية ممثلة في الطاوس الحضري التي تسرد مذكرات والدها كولونيل الزبربر وجدها مولاي بوزقزة.

ولكن بوعي تاريخي متميز متبوع بوعي فني من قبل المبدع ، وهذا ما صنع جمالية الخطاب التاريخي في الرواية، هذه المغامرة في الكتابة تعدّ صعبة جدا بالنسبة للمبدع، وهي في نفس الوقت مسؤولية كبيرة تسقط على عاتقه وعاتق شخصياته الروائية المحورية، تقول الطاوس: «ليست فحسب مسؤولة كنت أحسها أمانة أن أنزل الملف بارتباك بهشاشة وبخشية أيضا ليكون شهادة على ما نهبته من تاريخ رجال الشرف أنانيات الساسة وزحزحته حساباتهم إلى عراء النسيان، فها ذاكرتي كما جيلي بأكمله تلطخها حماقاتهم المتعاقبة منذ خمسين عاما...صوتي أنا صوت من يشعر به في غيهب تاريخي منسي»[(1)]، فالكتابة تعدّ من أصعب الرهانات التي تصادف المثقف والكاتب الملتزم، لأنها ترتبط بفعل المقاومة والثورة، وتحفر في أشدّ المواضيع تعقيدا، خصوصا لمّا يتعلق الأمر بتاريخ وطن بأكمله أنهكته الحروب والأزمات نتيجة تهور الساسة والقادة، وصدام الإيديولوجيات والمذاهب، هذا ما حدث في الجزائر خلال العشرية السوداء أين يقتتل أبناء الشعب الواحد، وهذا خلّف حيرة وحسرة لدى الطاوس: «إنّي فوق كرسي أمام طاولة المطبخ شابكة يدي خلف رأسي ها أنا أستمع لنفسي تتدب لي بطعم المرارة في ريقي، أنّي لم أقرأ عن تلك الأحداث في مقرر دراسي خلال مساري كله، ولا كنت شاهدت صورا منها أو طالعت عنها

(1)الحبيب السايح: كولونيل الزبربر، دار الساقي، بيروت، لبنان، ط1، 2015، ص13.

في وسيلة إعلامية رسمية إلاّ هذا التخمين وذاك من متورط فيها، أو هذا الروبورتاج وذاك من قناة بث متحيزة، أن يوجه أسلحتهم إلى صدور بعضهم بعضا في صبح الاستقلال من كانوا أمس جنبا لجنب يقاتلون عدوّا مشتركا»[2] ، فهذه الفتنة التي عرفتها الجزائر واحتضنها المكان نفسه(الزبربر)، الذي كان معقلا للثوار وصار موطنا للقتل والذبح في فترة التسعينيات، فالتاريخ واحد والمكان واحد، لكن الانسان لا يعتبر ولا يستفيد من الأخطاء التاريخية التي قادت الوطن إلى الهاوية، هكذا أرادت الطاوس الحضري أن تقول وعبّر عنه هذا المقطع السردي: «إنها حال شبيهة بحالي، لا أدري كيف أصرخ في وجه الحماقة، إني أدرك أنه يصعب على ضابط سام مثله قياسا إلى ما مضى من تلك الحياة أن يفصل لحظة عن أخرى كعزل عنصري الماء فتاك هي المعضلة تذكاراته مهما بيد بعض عناصرها قد فصل لهذا السبب أو ذاك(...)ثبتت علامات لذاكرتي وكليشيهات لعيني بكامل التشوّه لحقيقة حرب تحرير كانت قاسية لخيبة استقلال لم تفتأ قاتلة»[1].

فالطاوس تمثل صوت هذا الجيل الحائر والتائه، الذي يجهل تاريخه الحقيقي المغيّب والمطموس، ولا يعرف غير ما توارده واكتسبه في المدارس الرسمية للدولة، أو شاهده في التلفزيون من خلال أفلام الثورة التي تبث بمناسبة اندلاع الثورة التحريرية أو عيد الاستقلال، أو من خلال الأفلام الوثائقية التي تؤرخ لهذا الحدث التاريخي، تقول: «من أين لي أنا وريثة الهم والدم والفخر أيضا أن أفك خيوط هذا التشابك كله؟ كيف يمكن خرق هذا الصمت الصخري عن تلك الملابسات الفعلية والحقيقية ولو كانت مؤلمة ولو كانت مخجلة؟»[2]، كلها تساؤلات محيرة أرهقت عقل الطاوس وأدخلتها في دوّامة متعبة من الحيرة والتيه والضياع، تقول: «مهمومة بحيرتي مثل والدي بلا شك، فيما جعل جدي أن يمجّد شيئا من فعله هو، ها أنا أسمع صدى قوله يتلاشى في أعماقي آخرون ضحايا عدوان استمر قرنا واثنين وثلاثين عاما، هم الأحق بذلك فأنا ما انفككت أنتظر مذ وعيت وجودي التاريخي، أن يعاد لحرب التحرير مجدها المسلوب، قلت ذلك لحكيم...ولكن ما هذه الكآبة»[3]، حقيقة المسألة معقدة جدا من منظور الطاوس الحضري ويصعب فك ألغازها، لأنها لا تتعلق بمصير شخص بعينه، وإنما هو مصير أمة بكل ما تحمله من هوية وتاريخ وحضارة وثقافة، فمن الصعب تقبل فضاعة هذا الواقع المطموس والوجه المغيب من تاريخ الثورة الجزائرية، الذي لا يمكن السكوت عليه أبدا من منظور الساردة، التي تقدس والدها وترتقي به إلى مراتب عالية من السمو الأخلاقي، «مولاي بوزقزة كما يذكر في كراسته لم يشغله الجانب السياسي من الحرب إلاّ

(2) الرواية: ص196.
(1)الرواية: ص18.
(2)الرواية: ص148.
(3)الرواية: ص108.

مجلة طبنـــة للدراسات العلمية الأكاديمية ISSN 2661-7633 / EISSN 2716-8883
السنة: 2023 المجلد: 06 العدد: 01 ص.ص: 1358-1374

ناذرا فجنوده يعرفون ذلك(...) ولو أنه كما سجله ظل يشعر أنّ حربا كهذه تحتم ألاّ يكون الفصل بين المسؤوليات بتلك الصرامة، إنه يسميها الجمود»[4]، فهذه الشخصية التاريخية المتخيلة لم يعرف قلبها الحقد والحسد والأنانية، ولكن مصلحة الوطن أولى من كل شيء، لكن التاريخ الرسمي يقدم حقائق مثيرة للشك والارتياب، خصوصا لمّا يتعلق الأمر بتاريخ الشخصيات الفاعلة والبارزة في ثورة التحرير الكبرى وطرائق موتها واغتيالها، ممّا يزيد من درجة الحيرة والغموض، التي تحيل إليها جملة الأسئلة التي يطرحها الكاتب من بوابة الساردة ضمن المقاطع السردية التالية: «وكيف لقائد محنك مثل بن بولعيد أن يقتله في العام الثاني 1956/03/22 جهاز راديو مفخخ ألقته طائرة العدو جيء به إليه في كازمة ليجرب تشغيله وبعده يقع القائد زيغود يوسف في كمين العام الثاني 1956/12/25، في كمين نصّب له وسبعة من رفاقه من دورية معادية في أحد المنازل المعزولة، وأي أخبار عن القائد عبان رمضان نصدق استشهاده في العام الثالث 1956/12/26 كما بلغنا عن جريدة المجاهد، أم تلك التي تشاع عن أنه قتل لربطه اتصالات مع العدو، لم يكشفها للرفقاء، أم أنه اغتيل تصفية لحسابات»[1].

فإلى أي مدى يمكن تصديق هذه الروايات المختلفة والمتعارضة أحيانا، التي تركت نقاط استفهام كثيرة وفجوات يصعب سدّها ولا يمكن أن يستوعبها العقل التاريخي الواعي، لذلك تزداد حالة الشك لدى كولونيل الزبربر، «في الكازمة الآن يضيف مولاي بوزقزة: وكيف يسقط القائدان عميروش وسي الحواس في العام الخامس1959/03/29، في كمين قاتل نصبه لهما العدو لدى محاولتهما عبر الحدود الشرقية»[2]، فهذه الأحداث تثير العديد من الأسئلة المعقدة والمبهمة المتعلقة بتاريخ الثورة والثوار، حيث استفزت ذاكرة الطاوس الحضري وخلقت فيها نوعا من الحيرة كما سببت لها شرخا كبيرا في الذاكرة تقول: «ونهاية لم أتصور أن أسترجع في صمتي أن أكون حفيدة لجد بتلك الشمائل من الشجاعة الميدانية غير الخارقة ولكن العامرة إنسانية استثنائية ومن السخاء الكتوم والعفة الآسرة، وهذه القدرة الصلبة على الصمت، ها أنا أصغي إلى صوته العميق»[3]. تحاول الطاوس من خلال هذه المقاطع السردية مساءلة التاريخ الرسمي ووضعه موضع محاكمة رسمية من أجل الكشف عن ما هو مغيّب ومقصي، حتى تتضح الرؤية التاريخية للأجيال اللاحقة، فهي تمثل الجسر الرابط بين مختلف الأجيال، من هنا يتم فهم الحاضر وتجاوز مشاكله وعراقيله واستشراف مستقبل الأمة والمجتمع، «لأنّ بناء المجتمع الحالي له أصول في الماضي، وكلما

[4] الرواية: ص105.
[1] الرواية: ص145.
[2] الرواية: ص148.
[3] الرواية: ص145.

تحسّنت معرفتنا بهذه الأصول أصبحنا مهيئين بشكل أفضل للتغلب على الصعوبات التي تواجهنا»[4] في الراهن بكل حمولاته التاريخية والاجتماعية والثقافية والإيديولوجية، وهذه الاستراتيجية إنما هي ثورية، تحاول إعادة النظر في التاريخ الرسمي، وخلخلة وزعزعة مختلف البديهيات التي ترسخت لدى الفرد الجزائري في تعاطيه للتاريخ الجزائري والثورة على وجه الخصوص، من هنا ينطلق سؤال الشك في هذا التاريخ ليطفو على سطح الخطاب الروائي التاريخي، حيث يصل إلى أوج توتّراته في توجيه العقل الجزائري المثقف ممثلا في الطاوس نحو الأسمى، لفسح المجال لفهوم وتأويلات جديدة للتاريخ، وذلك بأن يقيم في هذا الأفق المفتوح من التفكير والفهم النيّر للتاريخ، وبمعنى آخر جعل الانسان الجزائري كائن تاريخي واع، وهذه القيم تتصهر مع بعضها البعض لتصنع في الأخير جمالية الخطاب الروائي التاريخي، الذي يمتلك منظومته الخاصة في التعبير عن الواقع وصنع التاريخ الحقيقي، الذي عجزت عن صنعه الذاكرة التاريخية، وهذا عبر تمثيل سردي يستثمر بوعي جديد في الكتابة الروائية التاريخية، هذا الوعي يقوم على أساس الشك في كل الحقائق والمعطيات الجاهزة، وعدم قبول ما هو يقيني، وهذا «يمثل إسقاطا للخبرة البشرية على خط الزمن الطبيعي»[1].

لتسرد الرواية بدورها تاريخها الخاص بها، من منظور المبدع، الذي يعجن تلك الأحداث ويتبّلها ببعض التوابل الفنية، ويبثّ فيها من روحه الإبداعية ليصنع وليمة أدبية تغري المتلقي، وتفتح شهيته القرائية في ممارسة مختلف التأويلات المختلفة.

فالرواية التاريخية لديها القدرة على التعبير عن تجربة الانسان الوجودية والداخلية، وإعادته إلى وعيه التاريخي، وقدرتها على الانفتاح على مختلف أشكال التعبير.

المطلب الثاني: مرحلة ما بعد الاستقلال /استمرار عملية التصفية

كما أشرنا من قبل أنّ الرواية تعيد المتلقي إلى زمن الثورة التحريرية، وما شهدته من ملابسات وصراعات بين قادة الثورة، وانشقاقات وفتن بين عناصر وأفراد جيش التحرير الوطني، ثم تأتي بعدها فترة الاستقلال التي شهدت بدورها استمرار عملية التصفية في حق مجموعة من الأفراد بحكم الخيانة والخروج على الصف، وهذه الأحداث والمشاهد السردية، فرضت على المبدع استثمار مختلف الأدوات التعبيرية، التي تتيح له معايشة هذه الأحداث عن قرب، وبشيء من التفصيل، وذلك من خلال اعتماد مجموعة من التقنيات التي تساعده على طرح أهم القضايا التي يريد تبليغها للمتلقي، وهذا كان من خلال بعض

(4) رأفت الشيخ: تفسير مسار التاريخ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية، القاهرة، مصر،(د.ط) ، ص16.
(1)عاليا محمود صالح: البناء السردي في روايات إلياس خوري، دار أزمنة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2005، ص 19.

مجلة طبنـــة للدراسات العلمية الأكاديمية ISSN 2661-7633 / EISSN 2716-8883
السنة: 2023 المجلد: 06 العدد: 01 ص.ص: 1358-1374

المعطيات التاريخية، التي تحيل إليها مجموعة من الفقرات داخل الرواية، التي تحمل بعض سمات الشخصيات المحورية كجلال الحضري خلال تلك الفترة، كالشجاعة التي كان يتصف بها، وحب الوطن والتضحية، والمساهمة في الثورة، فمن خلال شخصية الطاوس الحضري، يعود بنا الكاتب إلى زمن الثورة بكل حمولته الإيجابية والسلبية، ليبرز تفاصيل هذا الحدث وانعكاساته السلبية على مستقبل الجزائر فيما بعد، كحادثة اعتقال وإعدام العقيد شعباني من خلال تقرير سري قدمه الجنرال نعيم رزاز لصديقه كولونيل الزبربر هذا التقرير يحوي بداخله ثلاث حوارات، منها هذا الحوار الذي دار بين العقيد شعباني ومرافقه إلى السجن الضابط قيقي: « لا أحمل سلاحا هل أخيفكم إلى حدّ أن تكبّلوني؟ أمّا الطريق فإني كنت أعرف أدق تفاصيلها أحسستها كيلوميترا كيلومترا.. ورأيت استواءها ومنعرجاتها وحفرها أيضا من وراء هذه العصابة من بسكرة إلى الجلفة. ها إني أنزعها عنك، هل عرفتني أنا أيضا ؟–اه قيقي، الذائع الصيت، المساعد سابقا في صفوف جيش أسيادك. وأنا لا بدّ أن أنك تعرفني أكثر؟ (...) أعرفك من تكون، أيها الضابط وأعرف من كلّفك المهمة. تعني أنك ممن تقول عنهم المطرونين وأبناء باريس.

لأننا نحن أبناء ابن باديس. أنا واحد من أولائك يا بن راعي الابل، وأنا كلفني السيد الرئيس، خذ هذه تريد أن تر دمك الذي لم يسل خلال الحرب»[1]، يروي هذه المقطع ملابسات اختيال العقيد شعباني بعد الاستقلال مباشرة وما شهدته هذه المرحلة التاريخية من صراعات إيديولوجية بين قادة الثورة وأجندة فرنسا في الجزائر من خلال الضابط قيقي، الذي يمثّل بقايا المستعمر الفرنسي وأحد أجندته الحاقدة على المجاهدين والرجال الشرفاء في الجزائر، حيث كان لهم حضور كبير وتأثير فعّال في تحديد القرارات المصيرية التي تخص البلاد، في حين يمثّل العقيد شعباني صوت الإيديولوجيا الوطنية النضالية المحافظة على هويتها التاريخية والدينية وقيمها الثورية، من خلال استحضاره لشخصية عبد الحميد بن باديس كرمز لهذا الاتجاه الإيديولوجي، الذي تمثله جمعية العلماء المسلمين بشعاراتها الوطنية التي تمثل الهوّية الحقيقية للشعب الجزائري والمعارضة للاستعمار والرافضة لفكرة الادماج، كالعروبة والإسلام والوطن، هذه المبادئ التي ترفضها فرنسا، لكن العقيد شعباني يبقى وفيا لمبادئه وقيمه وقناعاته الشخصية حتى اللحظات الأخيرة التي سبقت إعدامه، «يخاطبه أحد القادة وهو يعصب له عينيه: يمكنك أن تطلب العفو من رئيس الجمهورية. –لن أمنحه هذا الشرف»[2]، وهذا يظهر مدى معارضته لسياسة النظام الحاكم ورفضه للمشروع السياسي في الجزائري بعد الاستقلال، هذا الرفض كلّفه الإعدام والتضحية بحياته من أجل نصرة قيمه وإيديولوجيته، لكن تلك اللحظة التاريخية من منظور المبدع تمثل وصمة عار في جبين

[1] الرواية: ص 323-324.
[2] الرواية: ص 207.

مجلة طبنـــة للدراسات العلمية الأكاديمية ISSN 2661-7633 / EISSN 2716-8883
السنة: 2023 المجلد: 06 العدد: 01 ص.ص: 1358-1374

القادة السياسيين في تلك المرحلة الحساسة من تاريخ الجزائر، وقد حاول الكاتب طرح هذه القضية سرديا ليمنحها بعدا إنسانيا، وهذا ما يجعل المتخيل يطغى على ما هو تاريخي وهذا أمر طبيعي، وبحكم أنّ المتخيل يرتبط بالواقعي في أغلب الأحيان، فإن الكاتب يمتلك الأدوات التعبيرية الازمة التي يجنّب بها المتلقي رتابة التاريخ أو هيمنة المتخيل.

المطلب الثالث: العشرية السوداء/جبل الزبربر الشاهد على فضاعة المشهد

إنّ العودة إلى زمن الثورة، هذا الزمن التاريخي من ذاكرة الجزائريين، لم يعد ينفع الآن بعد الاستقلال، فلم يستفد الشعب الجزائري من هذه الثورة وهذا الاستقلال، بل مازال يتخبط في كل أشكال الأزمات والمعاناة والقتل، الذي وصل إلى أوجّ درجاته خلال العشرية السوداء، التي يبقى فيها جبل الزبربر شامخ شموخ هذا الوطن في وجه النكبات والمحن، كشاهد على مختلف أمجاد المجاهدين والشهداء والرجال المخلصين لهذا الوطن، الذين ضحوا بحياتهم في سبيل استقلال الجزائر وبقائها واقفة في وجه النوائب والأزمات، والتزامهم بمثلهم وقيمهم الأخلاقية والدينية، «ستحفظ لكم ذكرا مجيدا كل شجرة وكل ورقة وكل نبتة في هذا الجبل، وكل طير وحشرة وكل حيوان، كل روح من حولكم يحسكم ويراكم»(1)، فهذا الجبل صار رمزا تاريخيا تفتخر به كل الأجيال، حيث تعيد من خلاله ترميم الذاكرة واستعادة التاريخ المفقود، فالكاتب عبر مزج التاريخ بالمتخيل، ومن أجل تشييد الفضاء الجمالي للخطاب الروائي يمارس تقنية أنسنة المكان، وهي «من أروع القيم الجمالية في الفن، لأنها رؤيا فنية فائقة لا تخضع للمقاييس المنطقية، ولا تشابه الأحداث الواقعية، يضفي فيها الفنان صفات إنسانية محددة على الأمكنة والحيوانات والطيور والأشياء وظواهر الطبيعة حيث يشكلها تشكيلا إنسانيا، ويجعلها كأي إنسان تتحرك وتحس وتعبّر وتتعاطف وتقسو حسب الموقف الذي أنسنت من أجله»(2).

حيث يجعل من المكان كائنا حيا له عواطف وأحاسيس اتجاه قاطنيه وساكنيه، حيث يتعايش مع المجاهدين ويحميهم ويشهد على تضحياتهم، من خلال المعارك التي كان مسرحا لها، ليصنع تاريخ هذا الوطن المجدي المسقي بدماء الشهداء الأبرار، « وعند شروق شمس الغد على حقل العائلة، في بداية يوم حملة الحصاد والدرس، وقف ينظر إلى جبل الزبربر: أحس أنفاسك هل يصلك صوتي، كنت لهم حصنا وحضنا، ما أقوى صمتك ولم يكن ليسمع همس له إلاّ منامه، ستقتفي أثرهم يوما لتطهرني كما فعلوا»(3)، هكذا تتحلّ الذات المبدعة بالمكان المؤنسن أو الذات الغير عاقلة فتسقط عواطفها وأحاسيسها على هذا

(1)الرواية: ص63-64.

(2)مرشد أحمد: أنسنة المكان في روايات عبد الرحمن منيف، دار التكوين للتأليف والترجمة، ط1، 2009، ص 9.

(3)الرواية: ص49.

المكان، وهذه الأنسنة كممارسة جمالية من قبل الكاتب الذي يدرجها ضمن خطابه الروائي «يدعها تقوم بدورها الإنساني الجديد، لتسهم في خلق المناخ العام الذي يطمح أن يحققه، وليجعلها تتجاور مع الانسان وأفكاره، كي تشاركه المعاناة والقهر والفرح في الحياة، وتجيء هذه المجاورة نتيجة لحاجة ذاتية وفنية، تسعى إلى تفسير الأحداث تفسيرا داخليا متميزا، وتصوير الحياة تصويرا خلاقا برؤية جديدة تتسم بالشمولية والإنسانية المطلقة»[4]، والأكيد أنّ إضفاء الرؤية الإنسانية على المكان باعتباره أحد أهم مكونات الفضاء الروائي، يخلق جمالية خاصة على هذا العنصر السردي خصوصا لما يتعلق الأمر بالرواية التي تشتغل على التاريخ.

لكن هذا الجبل سرعان ما يتحول إلى فضاء آخر عدواني يحتوي الجماعات الإرهابية في فترة العشرية السوداء، بعدما كان يأوي المجاهدين خلال حرب التحرير ويتغنى به الكبار والصغار، يقول كولونيل الزبربر وهو يستجوب أحد الإرهابيين المقبوض عليهم، «مثلك يدنس تراب هذا الجبل وغابته ومغاراته المعطرة بدم الشهداء، الزبربر كان حصنا لمن أخرجوا ملة أمثالك من هوان المستعمرين »[1]، هذا المشهد السردي يعدّ أحد المحفزات التي حفزت السارد على ممارسة الفعل الاسترجاعي، وذلك من خلال العودة إلى ماضي هذا المكان، وتحديدا فترة الحرب التحريرية التي كان يحتوي المجاهدين «ثمة احتلت ذهن كولونيل الزبربر صورة والده مولاي بوزقزة وهو بلباس الجندية، يوم كان هو وفصيلته والكتائب الأخرى في حرب التحرير أسياد الموقع يلتجؤون إلى مغاراته وكازماته إثر كل عملية مسلحة من نواحي المنطقة ضد قوات الاحتلال الفرنسية»[2]، فعبر تقنية المفارقة التي تقارن المكان بين الماضي والحاضر استطاع المبدع أن يشكّل بلاغة المفارقة، فالعودة إلى ذلك الزمن من أجل تصوير حالة المكان في الزمن الحاضر، الذي دمّرته جرائم الجماعات الارهابية ودنّست قداسته ورمزيته.

فالطاوس الحضري في نهاية المطاف ما هو سوى نموذج للذاكرة المنسية التي بقيت تعيش على أنقاض ذاكرة هشة أنهكتها متاعب الوطن وأزماته المتكررة، لكنها لم تلتزم الصمت، وإنما راحت تكشف المستور وتنفض الغبار عمّا هو مهمش في الخطاب التاريخي المؤسساتي، فالثورة لم تغير من الوضع شيئا، لذلك نلمس نقدا لاذعا من قبل الساردة لزمن الثورة تقول الطاوس: «إنّي فوق كرسي أمام طاولة المطبخ شابكة يدي خلف رأسي ها أنا أستمع لنفسي تندب لي بطعم المرارة في ريقي، أنّي لم أقرأ عن تلك الأحداث في مقرر دراسي خلال مساري كله، ولا كنت شاهدت صورا منها أو طالعت عنها في وسيلة

(4)مرشد أحمد: أنسنة المكان في روايات عبد الرحمن منيف، ص11.

(1)الرواية: ص264.

(2)الرواية: ص264.

إعلامية رسمية إلاّ هذا التخمين وذاك من متورط فيها، أو هذا الروبورتاج وذاك من قناة بث متحيزة، أن يوجه أسلحتهم إلى صدور بعضهم بعضا في صبح الاستقلال من كانوا أمس جنبا لجنب يقاتلون عدوّا مشتركا»(3) تسترجع الساردة زمن الاستعمار من خلال هذا المكان(الجبل)، لتبرز البعد الإيديولوجي للمكان خلال زمن الاستعمار، وتقارنه بزمن العشرية السوداء، الذي شيّد إيديولوجيا مضادة للقيم الحقيقية لهذا المكان ورمزيته، وهنا تبرز معالم النزعة التاريخية، خصوصا في هذه الرواية، التي استحضرت تلك الصراعات التي شهدتها الجزائر بمختلف أقطابها واتجاهاتها الإيديولوجية، السلفية منها والعلمانية، بين من اختار العمل السياسي، وبين من كان يحب العمل العسكري، وقد حدّد الكاتب مكان الأحداث وهو جبل الزبربر وزمانها الذي هو زمن الاستعمار الفرنسي في الجزائر بعد اندلاع ثورة نوفمبر عام 1954، وامتد حتى فترة التسعينيات من القرن الماضي، لكنه تجاوز المؤرخ عبر زمن جديد وضمن معطيات تاريخية مختلفة تصنع واقعا جديدا، لذلك نلمس في رواية كولونيل الزبربر تلك النزعة التاريخية، حيث تستند الرواية إلى الوثائق التاريخية، من خلال الإشارة إلى تواريخ رسمية مازالت تحتفظ بها كتب التاريخ، وهذه النزعة التسجيلية تحاول أن تعود بالقارئ إلى هذه الأحداث التاريخية، وتنبش في هذه الفترة الزمنية السوداء في تاريخ الجزائر، والتي تمثل وسمة عار في جبين فرنسا، ثم الفاعلين في صناعة الأحداث الدموية خلال العشرية السوداء، لتجعل منه قارئا جيّدا لحاضره من خلال ماضيه، ومن ثم استشراف المتغيرات والمستجدات التي تنتظره في المستقبل، وهذا هو الدور الرئيسي للرواية التاريخية، الذي ينحاز بها عن مستوى التاريخ.

وقد هيمن المكان التاريخي(الزبربر) على المتن الروائي بحكم معطيات عديدة، فالكاتب تعمّد ذلك ليبرز تاريخ هذا المكان وبطولته في مقاومة الاستعمار الفرنسي، ويجعل منه شاهدا على مختلف الجرائم التي ارتكبت في حق الأبرياء خلال فترة التسعينيات.

إنّ العودة إلى تاريخ الثورة التحريرية وفترة الاستعمار الفرنسي بالجزائر أمر طبيعي، فنادرا ما تفتقد الأعمال الروائية الجزائرية للحدث الثوري، خصوصا في المرحلة الأولى كما رأينا من قبل لذلك كان له حضور مكثف في المتون الروائية الجزائرية الرجالية منها والنسائية.

وروايات الحبيب السايح لا تخلو بدورها من هذا الحدث المحوري والهام من تاريخ الجزائر لكن طريقة استثمار هذا الحدث تختلف عن المتون الروائية الأولى، التي قدّسته ومجّدته وجعلت منه الحدث المكتمل

(3)الرواية: ص196.

مجلة طبنـــة للدراسات العلمية الأكاديمية ISSN 2661-7633 / EISSN 2716-8883
السنة: 2023 المجلد: 06 العدد: 01 ص.ص: 1358-1374

الذي لا يمكن المساس فيه، حيث أدخلته إلى طاولة المحاكمة، ليعاد فهمه وتفسيره، وتوضيح الرؤية للأجيال الصاعدة حول حقيقة هذا الحدث والرجال الفاعلين فيه.

فالكاتب حاول أن يفكّك هذا الحدث بوعي تاريخي، ليحدد«طبيعة الأفكار والتوجهات الإيديولوجية المتصادمة، واختلاف بنياتها وطموحاتها وخلفياتها»[1]، وليكشف دوره كمرجع في التأثير على الحاضر من خلال مزجه بالمتخيل ليعبّر عن هموم وتطلعات الشعب الجزائري ويقدم نقدا لاذعا لكل الفاعلين والمتسبّبين في أزمة هذا الوطن، وعرقلة الحوار والتعايش بين أبناء الوطن الواحد.

والأكيد لمّا يكون هناك وعي تاريخي ممزوج بوعي فني داخل النص الروائي الذي يستثمر الذاكرة التاريخية، سوف يتشكل نص ثوري بامتياز، نص يعيد بناء الحدث التاريخي من منظور فني يخص المبدع نفسه، ليحاول الحفر في هذا المشهد التاريخي، والكشف عن مختلف الهنّات التي سقط فيها الذين كانوا يمثلون هذه الثورة، واستغلوا هذا الحدث لتحقيق مصالحهم الخاصة، وفي نفس الوقت مقارنة هذا الزمن براهن الأحداث التي يعرفها المكان.

ومهمة الكاتب الجزائري طبعا، على غرار كل الكتاب والروائيين العرب هي «محاولة جديدة لصياغة الواقع عبر طرائق تنتمي له، فتساعد على تجليته وإنمائه نصيا دون تبسيط أو تزييف»[1]، حيث يقف على تفاصيله الدقيقة، وما شهده من تحولات عبر الأزمنة المختلفة لذلك كان الزمن هاجسه، شأنه شأن مختلف الشخصيات التي شكلت متونه الروائية.

الخاتمة:

في ختام هذا المقال يمكننا الخروج بمجموعة من النتائج المتعلقة بهذا البحث، الذي تناول تفكيك الذاكرة التاريخية في رواية "كولونيل الزبربر" للحبيب السايح، والتي يمكن اختصارها فيما يلي:

–يمكن القول أنّ خطاب الثورة كان له حضور قوي في رواية "كولونيل الزبربر" للحبيب السايح، انطلاقا من العنوان وصولا إلى المتن، فكانت الثورة هي المرجعية الأولى للحكي، كما شكّلت الشغل الشاغل الذي سكن أغلب شخصيات الرواية، وأثّث معمارها القصصي وفضاءها التخييلي من الداخل، خصوصا لمّا يتعلق الأمر بتاريخ الأماكن التاريخية وأبطال الثورة التحريرية.

[1]إبراهيم عباس: البنية السردية في الرواية المغاربية، المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر،(د.ط)، 2002، ص 115.
[1]محمد بدوي: الرواية الجديدة في مصر(دراسة في التشكيل والإيديولوجيا)، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان،ط1، 1993، ص20.

-الكتابة التاريخية عند الحبيب السايح مرتبطة ارتباطا وثيقا بفعل المقاومة، خصوصا ما يرتبط بأفعال القادة والثوّار، الذين صنعوا مجد هذا الوطن وحققوا حريته واستقلاله، وهذا من أجل إعادة تشكيل خطاب الثورة وربطه بالراهن المعاصر، وذلك، بإعادة الاشتغال على الذاكرة التسجيلية ومزجها مع المتخيل.
-انتقل خطاب الثورة من خطاب تسجيلي كما رأيناه عند الجيل الأول من الروائيين والروائيات، إلى خطاب تخييلي مع الحبيب السايح، فهو لا يتعامل مع الثورة كتاريخ مركزي منزّه عن الخطأ، وإنّما كأحداث تحتاج إلى نوع من النقد والدراسة وإعادة النظر، وقراءة دقيقة تقف عند كل المحطات الهامشية التي لم تدخل ضمن حيّز التاريخ المؤسساتي والذاكرة الجماعية.
-الرواية التاريخية عند الحبيب السايح على وجه الخصوص ليس خطابا ضد المستعمر فقط، وإنّما هو خطاب ضد الفاعلين في صنع الحدث الثوري، وتصوير لما يعاني منه الشعب الجزائري من مخلفات الثورة، حيث يلج إلى عمق الحدث التاريخي، ليحاول الاجابة على أسئلة أكثر تعقيدا وحساسية، تخصّ مصداقية هذا الحدث المقدس في الذاكرة التاريخية الجزائرية.
-أزال خطاب الثورة في رواية كولونيل الزبربر للحبيب السايح فكرة القداسة عن الثورة، وتلك الهالة التي طبعت مختلف الأعمال الروائية لسنوات عديدة، فينتقد هذا الخطاب الثورة بوعي مختلف، يقف خلالها عند المناطق المهمشة والمسكوت عنها في التاريخ الرسمي، ويعيد مسائلة كل ما هو مغيّب في الذاكرة التاريخية، فانتقل هذا الخطاب من الواقع إلى المتخيل ليعاد صياغته بشكل جديد وبلغة جديدة، يحاول من خلالها الإجابة عن التساؤلات المختلفة، ويتعامل مع الحدث الثوري لا كحدث وقع في الماضي ولكن كحدث له امتداداته المستقبلية، فيحاول إسقاطه على الوضع الراهن للمجتمع الجزائري، الذي يعرف استعمارا آخر لا يقلّ خطرا عن الاستعمار السابق، وهكذا يكون خطاب الثورة في رواية كولونيل الزبربر ثورة على خطاب الثورة، ليس انتقادا للثورة في حدّ ذاتها، وإنّما هو انتقاد لكل هؤلاء الذين مارسوا استعمارا جديدا على الشعب باسم الثورة التي دفع ثمنها مليون ونصف مليون شهيد من أبناء الجزائر.
وفي الأخير يمكن القول أن الجيل الجديد أعاد الاستثمار في التاريخ الجزائري ومرحلة الثورة التحريرية الكبرى على وجه الخصوص، وهذا من أجل تشييد فضاءه الروائي، على غرار المنجز الروائي السابق لكنه اشتغل على هذا التاريخ بوعي مختلف، لا ينظر إلى هذا الماضي كشيء مكتمل أو كنص مقدّس لا يقبل النقد أبدا وإنّما يحتاج إلى إعادة قراءة ومسائلة، فيعاد تشكيل التاريخ من منظور تخييلي لا كما حفظته لنا كتب التاريخ ولكن كما يجب أن يكون عليه من منظور المبدع، وهذا الدور الأكبر الذي تؤديه الرواية التاريخية انطلاقا من نبشها في المناطق المهمشة، محاولة سدّ الفجوات التي خلّفها المؤرخون ومتجاوزة المرحلة التسجيلية إلى مرحلة النقد فهو خطاب على خطاب، ومنه فالالتزام بموضوع الثورة لم

يكن عائقا أمام المبدعين الجزائريين، من أجل ممارسة التجريب الفني وابتكار أشكال مختلفة من الكتابة وذلك من أجل تشكيل نص روائي تاريخي حداثي ومتفرّد، يحمل خصوصية المبدع وثقافته وأسلوبه في الكتابة الابداعية.

-قائمة المصادر والمراجع:

-المصادر:

1-الحبيب السايح: كولونيل الزبربر، دار الساقي، بيروت، لبنان، ط1، 2015.

-المراجع:

2-إبراهيم عباس: البنية السردية في الرواية المغاربية، المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، (د.ط)، 2002.

3-جماعة من المؤلفين: أبحاث في الرواية العربية، منشورات مختبر السرديات، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ابن مسيك، الدار البيضاء، 2015.

4-رأفت الشيخ: تفسير مسار التاريخ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية، القاهرة، مصر، (د. ط)،2000.

5-عبد الله الركيبي: الأوراس في الشعر العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، (د. ط)، 1982.

6-عاليا محمود صالح: البناء السردي في روايات إلياس خوري، دار أزمنة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2005.

7-فيصل دراج: الرواية وتأويل التاريخ نظرية الرواية والرواية العربية، المركز الثقافي العربي، بيروت-الدار البيضاء، ط1، 2004.

8-محمد بدوي: الرواية الجديدة في مصر (دراسة في التشكيل والإيديولوجيا)، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان،ط1، 1993، ص20.

9-مرشد أحمد: أنسنة المكان في روايات عبد الرحمن منيف، دار التكوين للتأليف والترجمة، ط1، 2009.

10-نضال الشمالي: الرواية والتاريخ بحث في مستويات الخطاب في الرواية التاريخية العربية، عالم الكتاب الحديث، الأردن، ط1، 2006.